قضية الفصحى والعامية

الاستاذ ساطع الحصري

ان قضية الفصحى والعامية ، من اهم المشاكل التى تثير الجدل والمناقشة بين رجال الفكر والقلم ، فى مختلف البلاد العربية ، منذ مدة غير يسيرة ·

ذلك لان الفصحى لا يعرفها الا المثقفون ، ولا يتخاطب بها الا طوائف محدودة من هؤلاء ··· وأما العامية الدارجة ، فكثيرة الانواع تختلف اختلافا بينا لا من قطر الى قطر فحسب ، بل من مدينة الى مدينة فى القطر الواحد أيضا · حتى أنها تختلف بعض الاختلاف من حارة الى حارة ، ومن جماعة الى جماعة فى المدينة الواحدة ، فى بعض الاحيان ·

اذن فنحن — عرب اليوم — بين لغة فصحى يتفاهم بها بعض الناس فى جميع البلاد العربية ، وبين لغات عامية عديدة يتفاهم بكل منها جميع الناس ، فى بعض المناطق المحدودة من بعض البلاد العربية ·

ولا حاجة الى القول ان هذه الحالة مخالفة لمقتضيات الحياة القومية السليمة ، من وجوه عديدة·

فان كل امة من الامم تحتاج الى لغة « موحدة » تزيدها تجاوبا وتماسكا ، فتكون « موحدة » ·

لان مهمة اللغة — فى الحياة الاجتماعية المعقدة الحالية — لا تنحصر فى ضمان التفاهم بين المتخاطبين الذين يعيشون فى قرية واحدة او مدينة واحدة ، ولا بين الذين ينتسبون الى اقليم واحد ، او قطر واحد ؛ بل هى ضمان التفاهم والتكاتب والتجاوب ·· بين جميع ابناء الامة ، على اختلاف مدنهم واقطارهم ·

والتاريخ الحديث ملىء بامثلة بليغة ، على الجهود الجبارة التى بذلها ، ولا يزال يبذلها ، عدد غير قليل من الامم والدول فى هذا السبيل توطئة لاستقلالها او ضمانا لوحدتها ·

فنحن العرب نفتقر اليوم الى (لغة) يتفاهم بها جميع الناس فى جميع الاقطار العربية ·

ولكن ما السبيل الى ذلك ؟

ماذا يجب أن نعمل للتخلص من البلبلة الحالية؛

والتنعم بنعمة « لغة موحدة موحدة » فى جميع الاقطار العربيـــة ؟

اذا تأملنا فى هذا الامر بالمنطق المجرد خطـــر على بالنا ثلاثة سبل اساسية :

(أ) السعى وراء نشـــر وتعميم لغـــة مـــن اللغات الدارجة ـــ اى لهجة من اللهجات العامية ـــ على جميع البلاد العربية ..

(ب) السعى وراء نشر اللغة الفصحى ، بين جميع طبقات الشعب ، فى كل قطر مـــن الاقطـــار العربيـــة .

(ج) السير على طريقـــة متوسط بين الاولى والثانية ، على تطعيم اللغات الدارجة باللغة الفصحى؟

ولا حاجة للبيان أن الطريقة الاولى ـــ اى تعميم واحدة من اللغات الدارجة على جميع البلاد العربية ـــ غير منطقية وغير عملية ، فلا بد من التوجه الى اللغة الفصحى ، التى لها جـــذور عميقـــة واسس متينة ، وممثلون اقوياء ، فى جميع البلاد العربية ، لذلك يحسن بنا أن نحصر البحث والنقاش فى الطريقتين الاخيرتين وحدهما :

من المعلوم أن قواعد الفصحى ، فى حالتهـــا الحاضرة ، معقدة كل التعقيـــد ، وصعبـــة أشـــد الصعوبة ، وبعيدة عن اللهجات الدارجة بعدا كبيرا، فيجدر بنا أن نتساءل : هل من الضرورى أن نتمسك بجميع تلك القواعد التى وضعها أو دونها اللغويون منذ قرون عديدة ؟ هل يتحتم علينا أن نصرف توانـــا فى سبيل نشر وتعميم جميع تلك القواعد والاساليب ؟ الا يمكن أن نختصر ونبسط اللغة الفصحى ،ونشذبها تشذيبا معقولا ، يكسبها شيئا من السهولة ، من غير أن يفقدها ميزتها التوحيدية ؟ أفلا نستطيع أن نطعم اللغات الدارجة باللغة الفصحى تطعيما يبعدنا عن حذلقة علماء اللغة ورطانة عوام الناس فى وقت واحد ، فيوصلنا الى فصحى متوسطة ، معتدلة ؟ أفلا يحسن بنا أن نلجأ الى هذه الطريقة ، ولو بصورة مؤقتة ، كمرحلة من مراحل السير والتقـــدم نحـــو الفصحى التامة ؟

ان الاجابة عن هذه الاسئلة ـــ اجابة صحيحة ـــ تتطلب القيام « بأبحاث علمية » واسعة النطاق، تتناول الفصحى والدارجات فى وقت واحد ، وتدرس القضايا بجميع تفاصيلها ، وتقلب المسائل على جميع وجوههـــا .

أولا ، يجب أن نبحث : ما هى الحدود الفاصلة بين الفصحى والعامية ؟ ما هى الفروق التى تميز الاولـــى عـــن الثـــانيـــة مـــن حيـــث المفـــردات وكيفية نطقها من ناحية ، ومن حيث التراكيب واسلوب ترتيبها من ناحية اخرى ؟

وفى امر المفردات : هل يجوز لنا أن نعتمـــد على المعاجم والقواميس المعلومة كل الاعتماد ؟ يجب أن نفكر فى ذلك مليا ، لانه من المعلوم أن تلك المعاجم مزدحمة بكثير من الكلمات المهجورة التى لم يعد احد يشعر بحاجة الى استعمالها ، ومقابل ذلك انهـــا خالية من عدد غير قليل من الكلمات التى استعملها ولا يزال يستعملها اشهر العلماء والادباء فى اهـــم آثارهم العلمية والادبية ، كما أن الكثير من الكلمات القاموسية تستعمل الآن فى معان تختلف عن المعانى التى كان قد دونها القدماء كل الاختلاف . فلا بد لنا من أن نبحث عن معيار آخر يساعـــد على تمييـــز الفصيح عن العامى تمييزا معقولا .

وفى امر القواعد : هل يترتب علينا أن نعتبـــر آراء العلماء القدماء القول الفصل فيها ؟ افلم يختلف هؤلاء انفسهم فيما بينهم فى أمور التجويز والتفضيل والترجيح ؟ أفلا يحق لنا أن نعيد البحث والنظر فـــى تلك الاقوال والآراء ، وان نسلك مسلكا يختلف عن مسالكهم فى امر التجويز والتفضيل ؟ وهـــل يتحتـــم علينا أن نسعى وراء نشر وتعميـــم تلك القواعـــد بحذافيرها ؟ أفلا يمكننا أن نستغنى عن البعض منها لنجعلها اقل تعقيدا واكثر قابلية للانتشار ؟ وفى الاخير، لو قلنا بوجوب التمسك بجميع تلك القواعد ، أفلا يجب علينا أن نرتبها ترتيبا معقولا ، لنقدم الاهم على المهم ، ونسير على قاعـــدة التـــدرج فى جهودنـــا « التفصيحية » ؟

ثانيا : يجب علينا أن ندرس اللغات العامية واللهجات المحلية ، المنتشرة فى مختلف البلاد العربية: ما هى انواعها ؟ وما هى خصائص كل نوع منها ،

من حيث الكلمات والالفاظ والتعابير ؟ وما حدود انتشار كل واحدة من تلك الكلمات والاساليب والتعابير ؟ وما هى اسباب اختلاف هذه اللهجات عن الفصحى من ناحية ، وبعضها عن بعض من ناحية اخرى ؟ الا يوجد بين الكلمات الدارجة فى بعض البلاد ما ينطبق على قواعد الفصاحة كل الانطباق ؟ الا يوجد بين اللغات الدارجة صفات واتجاهات عامة ومشتركة ؟ الا تدل هذه الاتجاهات العامة والمشتركة على وجود دوافع عامة وضرورات مشتركة ؟ افلا يجب علينا ان نستكشف هذه الدوافع والحاجات ، لكى نستطيع ان نعالجها بأساليب اقرب الى الفصاحة على قدر الامكان ؟

ان كل هذه الامور والمسائل يجب أن تدرس وتبحث بكل اهتمام ·

وفضلا عن ذلك يجب علينا ان نتبع التطورات التاريخية ايضا : من المعلوم أن اللغة كائن حى ، يتطور على الدوام بتطور المجتمع ، وينمو تبعا لنمو الافكار وتنوع الحاجات ، اذ لكل كلمة وكل اسلوب ؛ فى كل لغة وفى كل لهجة تاريخ طويل او قصير ، ماض قريب او بعيد ·

ان نظرة فاحصة سريعة الى ما طرأ من تحولات على اللغة العربية فى مختلف البلاد خلال جيل واحد تقريبا ــ منذ انتهاء الحرب العالمية الاولى مثلا ــ تكفى للتأكد من صحة ما قلناه آنفا : لقد حدثت تطورات كبيرة فى لغة الدواوين ، وفى لغة الصحف ، وفى لغة التخاطب فى مختلف البيئات ، فى جميع البلاد العربية ، فقد دخل فى كل منها عدد كبير من الكلمات الجديدة ، مشتقة من اصول فصيحة ، او مقتبسة من لغات اجنبية · ومعظم هذه الكلمات المقتبسة كانت فرنسية فى بعض البلاد العربية وانكليزية فى بعضها الآخر ، وذلك تبعا للاوضاع السياسية الخاصة التى طرأت على كل واحدة من تلك البلاد · ومن جهة اخرى بدأت حركة معاكسة لذلك لترك تلك الكلمات الاجنبية واستبدال كلمات عربية بها ·

ثم ان ازدياد التواصل والتعامل والتزاور بين المدن والارياف من جهة ، وبين الاقطار المختلفة من جهة اخرى ، ادى الى حدوث تغير محسوس فى اوضاع اللهجات المحلية وفى التعابير العامية ايضا : صارت لهجات بعض العواصم تؤثر تأثيرا كبيرا فى اللهجات الفرعية ، كما ان لغة عامة الناس ايضا اخذت تتهذب وتتطور بتأثير انتشار التعليم ، وازدهار الصحافة ، وتعريب دواوين الحكومة ، وقيام الحياة النيابية ·

ولا نغالى اذا قلنا : انه اخذ يتكون فى بيئات المثقفين فى جميع البلاد العربية نوع من « لغة التخاطب » اقتبست الشىء الكثير من خصائص الفصحى ، وتباعدت عن الكثير من اساليب العامية ·

فيحسن بنا ان نتعمق ونتوسع فى درس هذه التطورات وتدوينها ، لنستفيد منها ونستنير بها فى تقرير خططنا الاصلاحية ·

* * *

يتبين من كل ما تقدم ان الابحاث اللغوية لا يجوز أن تبقى محصورة بين صحائف الكتب والمعاجم المعلومة ، بل يجب ان تخرج الى ميادين الحياة الاجتماعية ، وتدرس وتسجل ما يشاهد وما يلاحظ فى تلك الميادين بصورة فعلية ·

ويجب ان لا ننسى ان علماء اللغة القدماء تجولوا بين القبائل ودونوا ما سمعوه وما لاحظوه بكل تفصيل واهتمام · فيحسن بنا ان نقتدى بهم فنلاحظ ونسجل ما نسمعه من خصائص الكلام ، فى كل مدينة وفى كل بيئة ، بين الزراع والعمال ، بين البنائين والنجار ، فى المدن والارياف، بين الرجال والنساء ، بين الكهول والاطفال ·

ولا يجوز ان نتقاعس عن العمل فى هذا السبيل بحجة الاكتفاء باللغة الفصحى ·· اذ يجب علينا أن نعلم علم اليقين بأن تغيير الاشياء وتحسينها يتوقف على معرفة خصائصها ومراعاة نواميسها ·